المحاضرة 03:أدوار التشريع الإسلامي وأقسامه :(الدور الأول ---الدور الرابع)

الهدف:التعريف بالأدوار والمراحل التاريخية التي مرّ بها التشريع الإسلامي ،وخصائص كل دور،وطريقة الاجتهاد فيه.

الدور الأول: عصر المصطفى عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام معه

وهو من حين بعثة النبي وعمره أربعين عام، إلى حين وفاته وعمره ثلاثة وستين عام، في السنة الحادي عشرة من الهجرة، وكانت مدته ٢٣ عام، ثلاثة عشر منها مكية، وعشر مدنية .

سلطة التشريع في هذا الدور كانت لرسول الله عليه السلام، أما مصدر التشريع فهو الوحي المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.والوحي الذي كان يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقسم إلى قسمين:
وحي متلو ويتمثل في القرآن.
ووحي غير متلو: يتمثل في المعاني التي كانت ينزل الوحي بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصوغها المصطفى عليه السلام ببيانه هوَ.

هل كان هنالك اجتهاد في هذا العصر ..؟

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجتهد عندما يغيب عنه الوحي ويُسأل عن أمر ديني للتو ينبغي أن يعلم السائل حكمه..
وأما أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فعندما كان الواحد منهم عند رسول الله لا سبيل له إلى الاجتهاد فيسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن عندما يغيب هذا الصحابي إلى بلد أو إلى مكان ما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقع في مشكلة لا سبيل له إلا الاجتهاد ثم إن المصطفى عليه السلام إما أن يصحح اجتهاده ويقول أنه على حق أو أن يخطئه ويدلّه على الصواب فيما ذهب إليه.
هل كان النبي عليه الصلاة والسلام يجتهد. وهل يمكن أن يخالف اجتهاده حكم الله عز وجل الذي يعلمه الله عز وجل في سمائه؟
نعم يجتهد لكن لا يقرّ رسول الله عليه الصلاة والسلام على خطأ فلا بد أن ينزل شرع يبين له الحق في هذا, وكل ما قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنسبة لنا حق لكن بينه وبين الله ممكن أن يخطّئه سبحانه.
الباري عز وجل قال:" وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم " .." قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله .." فلا يجوز لنا وقد امرنا رسول الله بأمر إلا ان نتبعد فأمره عليه السلام بالنسبة لنا حق دائما, لكن هنالك احتمالاً أن لا يوافقه ربه على هذا الأمر فلا يجوز أن نقول: لا بد من أن يوافقه الله سبحانه وهذا لا يجوز.
ينبغي أن نعلم أن كل ما قضى به عليه الصلاة والسلام ينبغي أن ننفذه ثم نأخذ التصحيح أيضاً منه هو صلى الله عليه وسلم.

الدور الثاني من أدوار التشريع :

عصر الخلفاء الراشدين والصحابة المهديين من بعده (يبتدأ بوفاة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمتد إلى أول ولاية سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عام" واحد وأربعين للهجرة.

الجديد في هذا الدور بالنسبة للقرآن:

في عهد سيدنا أبو بكر رضي الله عنه تم جمع القرآن وكتابته مرة أخرى من أجل أن يجمع بين غلافين فالقرآن كان مجموعاً في حياة النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق كتاب الوحي لكن لم يكن مجموعاً بين دفتين , فهذا هو العمل الذي قام به سيدنا أبو بكر رضي الله عنه وكلّف بذلك زيد بن ثابت رضي الله عنه , واستمر الأمر على هذا المنوال إلى أن كانت خلافة سيدنا عثمان رضي الله عنه عندئذ قام سيدنا عثمان بنسخ سبعة نسخ على ضوء ما كتبه سيدنا زيد رضي الله عنه و وزعها في أمهات الأمصار وهذا أجلّ عمل في الواقع قام به سيدنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه في خلافته.

<u>الجديد في هذا الدور بالنسبة للسنة:</u>

لم يحصل شيء جديد يتعلق بكتابة السنة أو ضبط روايتها ولكن رأى جل الصحابة أن سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم أصبحت في مرحلة الخطر بسبب اتساع رقعة الإسلام وانتشار الإسلام في كثير من الأمصار فهؤلاء المسلمون يتلقون حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وربما لم يستطيعوا أن يحفظوا هذه الأحاديث التي يتلقونها فربما خانتهم الحافظة فوجد جل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من الخير أن تقل رواية الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وكان سيدنا ابو بكر واحد من المتحمسين لذلك فجمع في أولى أيام خلافته ثلة كبيرة من الصحابة الذين كانوا ينتشرون في الآفاق والبلاد الإسلامية وقال لهم: إنكم تختلفون في كثير من المسائل وإن الذين سيأتون من بعدكم سيكونون أشد اختلافاً منك فإذا ذهبتم واتجهتم إلى حيث تذهبون فأقلّوا من رواية الحديث ووجهوا الناس إلى كتاب الله سبحانه وتعالى ما وسعكم ذلك, ووقف ذات الموقف سيدنا عمر رضي الله عنه، وكذلك جلّ الصحابة.

وهذا لا يعني الإعراض عن الحديث والرجوع إلى القرآن فقط وعدم تحكيم السنة النبوية عندما تثبت ..؟ ففي الدور الثاني من أدوار التشريع لم يحصل أي ضبط للرواية كما سنجد في الدور الثالث لكن الذي حصل هو هذه الوقاية السلبية.

الجديد في هذا الدور بالنسبة للاجتهاد:

أما طريقة الاجتهاد الذي ظهر في هذا العصر بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان منهجهم وخصوصاً المفتين أمثال زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس أنهم لا يفتون إلا في الوقائع التي وقعت فعلاً، وكانوا يضيقون ذرعاً بهذا, وكان يقول سيدنا عبد الله بن مسعود إياكم و أرأيت أرأيت.. فإنما هلك من قبلكم بهذا

طريقة الصحابة في الاجتهاد في هذا العصر:

كانت طريقة الصحابة في الاجتهاد هو ذات المنهج الذي تلقفه أئمة المذاهب فيما بعد ،وأصحاب رسول الله تلقفوا هذا المنهج بطريقة او بأخرى من سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام؛فكانوا يرجعون أولاً إلى القرآن أدباً ثم إنهم يعودون في الدرجة الثانية إلى السنة لتبيين ما قد وقفوا عليه في القرآن, ثم بالرجوع إلى كبار الصحابة وما اجتهدوا فيه كعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت وغيره. ولعلهم لم يجدوا مطلبهم أيضاً عندئذ يجتهدون فالواحد منهم يدلي برأيه وليس كلمة الرأي هنا هو يعني الرأي المزاجي معاذ الله .. بل معناه أن يقيس الأمور على مشبهاتها.

و الحكم الذي كان يرتئيه هذا أو ذاك لم يكن الواحد منهم يدعي أنه ينطق باسم الله وانه قد جاء بحكم شرعه الله عز وجل ومن ثَم لا يتعصب الواحد منهم لغيره.

نتيجة لذلك كثر الاختلاف في أحكام الشريعة الإسلامية في هذا الوقت.

ومن نماذج الخلافات .. كقصة عبد الله بن مسعود وفتواه في المرأة التي مات عنها زوجها ولم يدخل بها, واختلافه في الحكم مع سيدنا علي رضي الله عنه.وغيرها من المسائل الأخرى .

الدور الثالث من أدوار التشريع الإسلامي ويمتد إلى أوائل القرن الثاني للهجرة :الخصائص التي برزت في هذا الدور مما لم يكن موجوداً من قبل:

01- **ظهور الغلوّ الديني** من جراء السياسة سببه موضوع الخلاف فيما يتعلق بالخليفة وهو سيدنا علي. عندما بويع سيدنا علي رضي الله عنه استشرى في أمر الخليفة أهو علي أم معاوية رضي الله عنهما, ظهر هذا الغلو في موقف الخوارج...

02- **تفرق علماء الصحابة خارج الجزيرة العربية** وكان سيدنا عمر يمنع العلماء من أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام من التفرق حتى يجد حاجته فيهم عندما تظهر مشكلات يريد استشارتهم فيها لكن سيدنا عثمان في عصره سمح بذلك.

03- انتشار الرواية عن النبي عليه الصلاة والسلام وشيوع رواية الحديث بكثرة دون ضابط.

04- **ظهور مدرسة الحديث وكان مركزها في الحجاز ومدرسة الرأي وكان مركزها في العراق.**

05- **ظهور تدوين الحديث** حفظاً للحديث من شرود بعض الناس عن ضوابط الرواية وحماية للحديث من بعض المتدخلين المتسربين من الزنادقة وأمثالهم.

***الخاصية الأولى**: ظهر الخوارج في هذا الدور ولعلكم تعلمون سبب وجودهم وسبب غلوهم وتطرفهم, عندما أراد معاوية من سيدنا علي أن يجنحا إلى التحكيم ورفع جماعة معاوية رضي الله عنه القرآن فوق الرماح فاستجاب سيدنا علي رضي الله عنه لهذا الأمر لكن طائفة من جماعة سيدنا علي لم يتفقوا مع سيدنا علي على ذلك فهذا الانشقاق هو الذي ولّد من يسمون بالخوارج .. ومعنى الخوارج أي هم الذين خرجوا على سيدنا علي رضي الله عنه بل اتهمه المتطرفون منهم بالكفر.

وفرقة الشيعة لم تكن موجودة في الدور الثاني نهائياً لا في عصر أبي بكر رضي الله عنه ولا في عصر عمر ولا عثمان ولا في عصر سيدنا علي في بادئ الأمر . وقد بايع سيدنا علي رضي الله عنه سيدنا أبو بكر وبايع سيدنا عمر وبايع سيدنا عثمان رضي الله عنهم, ظهرت هذه الفرق فيما بعد.

***الخاصية الثانية**: لاحظوا كيف توازعت البلدان علماء الشريعة الكبار ومن أبرز الفقهاء في المدينة المنورة:

سيدنا عبد الله بن عمر , وسيدنا أبو هريرة, وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهم.

ومن أبرز الفقهاء الموجودين في مكة: سيدنا عبد الله بن عباس وزيد بن ثابت كذلك وآخرون رضي الله عنهم

ومن أبرز من وجد في مصر: سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه وغيره.

أما في بلاد الشام: معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم فقد كان لهم دور عظيم هناك.

أما من جمعتهم الكوفة : فكان هناك أبو موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود وكان أيضاً ثلة من تلاميذ سيدنا علي رضي الله عنهم أجمعين وقد ترعرع على أيديهم عدد من التابعين من أبرزهم ابراهيم النخعي..

***الخاصية الثالثة**: انتشار الرواية عن سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام . ولم تكن هنالك ضوابط للرواية عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعوامل ذلك كثيرة:

أولاً : كثر الزنادقة الذين تظاهروا في الدخول بالإسلام وكانوا يضمرون خلاف ذلك فلم يكن كل من أسلم في الشام ومصر والبلاد الأخرى صادقين في إسلامهم , فقد كانوا هؤلاء يؤلفون الأحاديث المختلقة من عندهم ويختلقون لها أسانيد وينسبونها إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام لكي يشككوا الناس في الدين.

ثانياً: ظهرت مظاهر الغلو – ظهور الخوارج والشيعة – فهذا الغلو وهذا التطرف دفع هؤلاء إلى أن يخترعوا الأحاديث من أجل أن ينتصروا لأفكارهم.
عبد الله بن لُهيعة يقول: رأيت شيخاً من شيوخ الخوارج – أي كان من الخوارج ثم أسلم – قال: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم, كنا إذا هوينا شيئاً جعلنا له حديثاً.
ثالثاً: ففي البلاد النائية عن الجزيرة العربية كان الناس يتشوقون إلى أن يسمعوا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأتي من يجمع الناس من حوله ويعلم أنه إن جاء هم برواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر التلاميذ من حوله ليسمعوا عن رسول الله عليه الصلاة والسلام فيختلقون أحاديثاً عنه صلى الله عليه وسلم ويقولون : نحن نكذب عن رسول الله عليه السلام لا عليه!
هذا الذي دفع إلى شيء اسمه مدرسة الحديث في الحجاز ومدرسة الرأي في العراق..

الخاصية الرابعة:الظواهر الثلاث التي تميز بها الدور الثالث استلزم نتيجة رابعة وهي وجود تيارين – من العلماء- أحدهما في الحجاز وهو الذي سمي بمدرسة الحديث والآخر في العراق وهو الذي سمي بمدرسة الرأي أي مجموعة علماء من الصحابة ومن التابعين تميزوا باجتهاد الرأي, في حين كانت هنالك ثلة كبيرة من العلماء متمركزين في الحجاز عرفوا بمدرسة الحديث.
كانت مدرسة الحجاز تعتمد دائماً على النص ولا تتجاوز النص إلى الرأي الاجتهادي إلا عند الضرورة القصوى لذلك سميت بمدرسة الحديث, والمدرسة التي كانت في العراق كان اعتمادها في الغالب على الرأي ولا تجنح إلى النص إلا بعد اليقين التام بأن هذا النص الصحيح وبأن النبي عليه الصلاة والسلام فعلاً قد قاله.
أما عوامل ظهور مدرسة الحجاز هي:
أولاً :غناهم بالحديث وكثرة وجود حفاظ الحديث فيها.
ثانياً: قلة المسائل والمشاكل والأمور الحديثة وبقاء الأمور نسبياً على ما كانت عليه في عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام فلم يكونوا بحاجة ماسة إلى الاجتهاد في الرأي.
ثالثاً: تهيب هؤلاء العلماء - علماء الحجاز - من الاقتحام إلى الأحكام الشرعية دون دليل من النص فلم يقتحموا أبواب الاجتهاد والرأي حفظاً على الحديث والقرآن, هذا إلى جانب أن درايتهم بقواعد استنباط الأحكام من النصوص لم تكن قد نضجت بعد, فلم يتمرسوا بعد على أصول الاجتهاد ودعائمه وشروطه

عوامل جنوح علماء العراق للرأي..؟
أولاً: قلة الأحاديث التي بوسعهم أن يعتمدوا عليها فقد كانت الأحاديث الكثيرة في الحجاز حيث النبوة أما علماء العراق فقد كانوا فقراء بالنسبة لعلماء الحجاز بالنسبة للحديث.
ثانياً : ظهور الكذابين على رسول الله صلى الله عليه وسلم في العراق اضطرّ هؤلاء العلماء أن يحتاطوا في الرواية.
ثالثاً: كثرة المشاكل والأمور المستجدة لأنها لم تكن بلاد إسلامية وإنما دخلها الإسلام وانتشر فيها.
رابعاً: هذا الوضع الذي كانوا يعيشون فيه جعلهم يتمرسون بطرق الاجتهاد بالرأي وبقواعد استنباط الأحكام من مصادرها فقد لا يكون فيها نصوصاً هناك شيئاً اسمه (الاستحسان وسد الذرائع والاستصلاح) وهذه كلها كمصادر للتشريع دلّ عليها بشكل إجمالي كتاب الله تعالى.
الجامع المشترك بين المدرستين _ مدرسة الرأي والحديث
أما ما يلتقيان عليه: إتباع النص في حالة وجوده إذا استوفى شروطه وهي ثبوته ثبوت يقيني قطعي و دلالة واضحة أكيدة وقوة السند في الحديث الشريف ، ثم يفترقان بناءً على طبية بيئة كل منهما فبيئة

الحجاز تختلف عن بيئة العراق.
وإلا فهم يضطرون للتفكير واعتماد القياس وذلك في أضيق الحالات وأحوجها.

من بعض علماء أهل الحديث:
-عطاء بن أبي رباح في مكة، وفي العصر الأموي كان الخلفاء ينادون ألا يفتينّ الناس إلا عطاء بن أبي رباح في موسم الحج ويُلزمونهم بالأخذ منهم فقط.
-سعيد بن المسيّب في المدينة المنورة وكان من أجل علماء المدينة وأكثرهم ورعاً ومن المكثرين للرواية عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.
بعض علماء أهل الرأي -:إبراهيم بن زيد النَّخعي -.الحسن البصري وهو من علماء البصرة وكان مرجعاً كبيراً في العقيدة والفقه وفي الرواية عن رسول الله عليه السلام وكان ورعاً وكان من نبلاء الفقهاء والعلماء -.مكحول الشامي والإمام الأوزاعي في الشام.
الخاصية الخامسة:من الأمور التي تجلّت في أواخر الدور الثالث تدوين الحديث وحمايته ألم نقل إن الكذب انتشر على رسول الله في تلك الفترة فماذا صنع علماء الحديث لحمايته من ذلك ..؟
بني العباس اشتهروا بخدمة الدين وبحماية الحديث وقاموا بثورة علمية لا شك فيها. من الأعمال الجليلة والتي ساهمت في سد الفجوة هي: تدوين الحديث في مصنفات ولم تكن تسمى صحاح أو مسانيد.
وكان أول من قام بذلك الإمام أبو بكر ابن حزم أخرج أول مدونة في حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام بالرواية والإسناد وكانت مدوّنته هذه موثوقة وكانت عبارة عن سجل يحوي لأول مرة شيئاً مكتوباً يثق الناس به وأن ما فيها هي الأحاديث الصحيحة التي رويت عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ويعرف ذلك بالرواة المذكورين المعروفين ولم يكن الفاصل بين رسول الله عليه السلام بفاصل زمني طويل.
والمدونة الأخرى التي ظهرت في أواخر الدور الثالث مدونة (الموطأ) للإمام مالك فقد طلب منه أبو جعفر المنصور أن يدون كل ما يعرفه من حديث رسول الله عله الصلاة والسلام وقال له: وطّئه توطيئاً .. والفرق بين هذه المدونات والمدونات التي جاءت من بعد والتي سنتحدث عنها في الدور الرابع أن هذه المدونات التي ظهرت في الدور الثالث امتزج فيها الأحاديث في الأحكام الفقهية فأنت إذا قرأت مثلاً الموطأ رأيت الإمام مالك يروي حديثاً إثر حديث إثر حديث ثم يذكر لك أحكاماً من أحكام الشريعة الإسلامية.
فهذه المدونات إن مدونة الإمام مالك أو مدونة الإمام ابن حزم جمعوا فيها بين الحديث رواية وبين الأحكام الفقهية فتوى.
ومن هذه المدونات أيضاً المدونة التي قام بها سفيان بن عيينة أخرج ما سماه (الجامع في السنن والآداب(
كذلك المدونة الرابعة في هذا العصر التي قام بها سفيان الثوري أخرج ما يسمى (الجامع الكبير في الفقه والحديث.(
هذه المدونات التي ظهرت في أواخر الدور الثالث من أدوار التشريع كانت مقدمة الإحاطة بأحاديث رسول الله عليه الصلاة والسلام واستخلاصها من أيدي المارقين والمتربصين بكلامه صلى الله عليه وسلم.

<u>الدورالرابع من أدوار التشريع الإسلامي</u>: العصر الذهبي وهو عصر نضج منهج أهل السنة والجماعة بظهور مجتهدي: المذاهب الفقهية الأربعة.

نبدأ بالدور الرابع من أدوار التشريع الإسلامي وهو أنضج الأدوار في طريق التشريع ويبدأ زمنياً من أول القرن الثاني ويمتد إلى منتصف القرن الرابع.

من أهم ميزات هذا الدور:

أولاً: اتساع العلوم الإسلامية وتحول العلوم من روايات تعتمد على اللسان إلى مدونات.

ثانياً: رأب الصدع والتقارب بين المدرستين إلى أن اتحدتا في مدرسة واحدة متناسقة.

ثالثاً: ظهور الأئمة الأربعة.

شرح أولاً: النشاط العلمي واتساعه في الدور الرابع:

ظروف الدور الرابع يسرت للعلماء التوسع في مجال المعارف والعلوم المختلفة لا سيما القرآن والسنة فأقبلوا إلى تدوين هذه العلوم والمعارف في سائر العلوم بالإضافة إلى علوم الشريعة كعلم النحو والعروض والأدب والبلاغة والتاريخ وغيرها , بدأت هذه العلوم تظهر وتترعرع في ظل هذا الدور.

من أبرز علماء هذا الدور: سفيان بن عيينة, سفيان الثوري, مالك بن أنس إمام علماء المدينة , الحسن البصري, الإمام أبي حنيفة, الإمام الأوزاعي الذي أقام في بلاد الشام ثم رحل إلى بيروت وتوفي هناك, الإمام الشافعي, الليث بن سعد الإمام أحمد وداوود الظاهري صاحب المذهب الظاهري..

عوامل النشاط العلمي الذي تجلّى في هذا العصر

1- عناية الخلفاء بالعلم والعلماء ولا سيما الخلفاء العباسيين، فقد كان اهتمامهم بالعلم لاسيما العلم الشرعي أكثر من خلفاء بني أمية .باستثناء سيدنا عمر بن عبد العزيز ، أبو جعفر المنصور كانت له اليد القوية في حماية السنة وقد بذل في سبيل ذلك جهداً كبيراً وجعل من نفسه خادماً للعلماء في هذا الصدد. الإمام المهدي من بعده سجل له التاريخ ملاحقته للزنادقة وإنزال أشد العقوبات بهم. هارون الرشيد الذي أوجد منصب قاضي القضاة ليحفظ للقضاء هيبته وسلطته . المأمون من الذين شجعوا العلوم الإسلامية, وشجع حرية البحث والحوار.

2-**حرية البحث والحوار** بدلاً من أن تتخاصم المذاهب المتناقضة كان يسود بينها الحوار الهادئ – النقاش العلمي - وبإشراف خليفة المسلمين, وكثيراً ما يتحول هذا الحوار إلى مدونات علمية .

3-كثرة الوقائع في هذا الدور فقد تألقت فيه الحضارة الإسلامية وانتشرت فيه الفتوحات ولذلك يسمون هذا الدور بالعصر الذهبي للإسلام فمبادئ الإسلام تتسع لتغطية كل ما يجدّ من العادات والرؤى الفكرية إما الإباحة أو الوجوب أو الحرمة أو الكراهية.

4-تدوين العلوم: اتسع التدوين بل أصبح الأساس فيما يتعلق بنشر العلوم والمعرف في الدولة الإسلامية مترامية الأطراف وكانت الخلافة هي التي ترعاه وتشجعه أيما تشجيع , وهو الذي يسهل مراجعة البحوث العلمية دون أن يرحل الباحث فيه من بلد لآخر, وفي ظل هذا النشاط العلمي تطورت علوم الإسلام (التفسير والحديث ووسائل توزيع علوم العقائد وطريقة إيصال مبادئ العقيدة إلى الأذهان وكذلك الفقه.